

مستقبل اللغة العربية ورهاناتها في ظل العولمة

أيمن مصطفى حجازي

كبير باحثي مجمع اللغة العربية (مصر)

إن القضايا التي تواجهها اللغة العربية في العصر الحديث، هي قضايا طارئة تفرضها متطلبات العصر من ناحية، وقرون التراجع الحضاري التي مرت بها أمتنا العربية عبر مسارها التاريخي من ناحية أخرى، وليست قضايا لغة تواجه استيعاب ما وصلت إليه المعارف الإنسانية في أول تجربة لها، فقد اجتازت العربية هذه التجربة في تاريخها الطويل عندما كانت اللغة العربية اللغة الأولى للعلم والفكر في العالم أجمع، ولعدة قرون، فكم للغات وللأُمم قضاياها، وليست العربية متفردة بذلك من دون اللغات، بل ربما كانت قضاياها أقل عسرًا للمعالجة، إذا ما صدقت النوايا وتوافرت الإرادة في خدمة العربية وإثراء الاعتزاز بها، والإيمان بقدراتها ووضع لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف في مكانة الشرف والاحترام الذي تستحقه.

إن لغتنا العربية تواجه قضايا مهمة في العصر الذي يتصف بتفجر المعرفة في جميع مجالاتها، ويتميز بهذا التسارع الضخم في تطور العلوم على الأرض، وفي الفضاء الخارجي، وهذه القضايا أهمها يتعلق بتيسير تعليم العربية، ولا تمس إطلاقًا إعرابها ونحوها وصرفها ونظم التراكيب؛ لأن هذه الثوابت التي بدونها تفقد اللغة مقوماتها الأصيلة. فالعربية ثابتة من حيث نطقها ونحوها وصرفها، ولكنها نامية من حيث أساليبها ومفرداتها ودلالات ألفاظها. هذه الخصائص التي تنفرد بها العربية من بين جميع اللغات في العالم.

لغة المستقبل:

إن مستقبلنا الثقافي والعلمي مرتبطان بقضية تعريب العلم والتعليم، فلا يعقل أن تخوض مجالات العلم الحديث ونواكب تقاناته وننعم بمنجزاته، وتبقى لغتنا غريبة عن أجواء العلم وتقنياته وإبداعه. لقد آن أن تصبح اللغة العلمية جزءًا من حياتنا اليومية في المدرسة والبيت والمصنع والحقل، وإن تغد والثقافة العلمية جزءًا من ثقافة الصانع والزارع والطالب والمعلم والصحافي والأديب وصاحب الاختصاص الفني.

ولاشك أن مستقبل اللغة العربية يرتبط باستخدامها المتزايد والجاد في شبكات المعلومات العالمية، إن تقنيات المعلومات شهدت تحولاً من أجل تيسير إتاحة المعلومات عبر الحدود والقارات والحضارات وتقوم حالياً - في غالب الأحيان - على اللغة الإنجليزية. وهناك جهوداً أوربية قوية تتم لجعل الإتاحة -أيضاً- باللغات الأوربية الكبرى، وفي مقدمتها الألمانية والفرنسية والإسبانية. ولن يمر وقت طويل حتى نجد العربية قد اتخذت مكانها في شبكات المعلومات عبر الحدود. هذا الأمر يتطلب جهوداً كثيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقانات المعلومات وعلى مستوى دراسة المستفيدين حتى نجد الجامعات والوزارات والمجامع في الدول العربية تتعامل باللغة العربية وتصبح العربية من اللغات العالمية الكبرى بوصفها وسيلة لنقل المعلومات بالتقانات المتقدمة.

وهو ما يتطلب أن تصبح اللغة العربية لغة منتجة للعلم، لتتبوأ المكانة الرفيعة بين لغات العالم، ويوم أن كانت العربية في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، لغة للعلم بمدلوله الدقيق الشامل، ارتقت إلى الذروة، وحازت فضل السبق بين اللغات العالمية، حتى صار طالب العلم من أي ملة أو عرق كان يتخذ من العربية وسيلة لاكتساب العلوم والإحاطة بها والتبحر فيها. ليست العولمة شراً يتقى أو خطراً يدفع، إنما هي ظاهرة لها السلبيات والإيجابيات، إن توافرت شروط التعامل معها والتكيف مع متغيراتها، أمكن تجاوز تلك السلبيات والتغلب على ما يترتب عليها من مشاكل.

في مقدمة هذه الشروط امتلاك القدرات الذاتية على مستوى اتخاذ القرارات البناءة الفعالة، وذلك للانفتاح على آفاق العصر، للاندماج في تياراته؛ من منطلق الاقتناع بأن حماية الذات وترقيتها، والحفاظ على الهوية والتشبث بخصوصيتها الثقافية والحضارية، رهبن بإثبات الحضور في مجال ساحة التفاعل الإنساني وفي مضمار الحوار الثقافي بين الحضارات، فامتلاك القوة الذاتية والقدرات العلمية والتقنية والصناعية والاقتصادية هي الحصانة ضد التأثيرات السلبية والانعكاسات الضارة لنظام العولمة الآخذ في احتواء مواقع الاستقرار الثقافي، واقتحام معازل الخصوصيات التي تميز الثقافات والحضارات بعضها عن بعض بما يغني الحضارة الإنسانية ويقويها بالتنوع الثقافي والتعدد الحضاري. فالعولمة هي هذا التشابك الذي نعيشه اليوم معظمه ليس خياراً، فالسوق المشتركة والعلوم والتقانة، وانتشار الأفكار وتبادل المعلومات عبر شبكة المعلومات الحاسوبية، كل ذلك عمليات متاحة للجميع يتقدم فيها القوي ويفرض تفوقه.

إذن ظاهرة العولمة هي: ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أم في انتقال رؤوس الأموال، أم في انتشار المعلومات والأفكار، أم في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم؛ كل هذه العناصر يعرفها العالم منذ عدة قرون وبالأخص منذ الكشف

الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر، فالظاهرة عمرها خمسة قرون وبدايتها وغدها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بتقدم الاتصال والتجارة منذ اختراع البوصلة وحتى الأقمار الصناعية.

ذلك أن ضرورة مواجهة التحديات التي تحاصر اللغة العربية، ليس اليوم في عصر العولمة، فالدعوة لتطوير اللغة بتيسير النحو وتبسيط قواعده فحسب، ليس معناه أيضاً نقل الألفاظ والتعابير الجديدة عن اللغات الأجنبية، إنما المراد هو الارتقاء باللغة لتكون في مستوى تطور الفكر والحياة والمجتمع بحيث تصير منتجة ولا تظل لغة مستهلكة.

فتطوير اللغة العربية ضرورة من ضرورات تطوير الحياة العامة في العالم العربي والإسلامي لأن التجديد إنما يبدأ من اللغة، وبناء المستقبل يقوم على أساس تحديث اللغة حتى تكون لغة عالمية حاسوبية.

فمما لا شك فيه أن اللغات تتطور وتنحط، وتتقدم وتتأخر بحسب درجة الناطقين بها من الرقي الحضاري والتقدم الاجتماعي، ولذلك فهي ليست ظاهرة اجتماعية فحسب، ولكنها مرآة مجلوه لتسجيل درجة الوعي الحضاري لمدى متحدثيها.

ليست اللغة من وجهة ثانية، مجرد ظاهرة اجتماعية كما يتمثلها علماء الاجتماع، إنما هي أداة تعبيرية طيعة حية تبلغ ذروتها حين يعتمد الناطقون بها إلى التماس الجمال الفني في تعبيرهم بها، وفي التألق والازدهار والقوة والقدرة على مسايرة ركب التقدم في كافة الميادين. التفاعل بين العلم والتقانة وبين العناصر الثقافية والتعليمية والحضارية والاجتماعية، هو تفاعل قائم وملموس، كما أن ارتباط سياسة العلم والتقانة بالسياسة الثقافية هو بدوره ارتباط وثيق وملموس، لأنه لا يمر وقت طويل حتى نجد العربية قد اتخذت مكانها في شبكات المعلومات عبر الحدود، وهذا الأمر يتطلب جهوداً كثيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقانات المعلومات وعلى مستوى دراسة المستفيدين حتى نجد الجامعات والوزارات والمجامع اللغوية في الدول العربية تتعامل باللغة العربية، وهذا أحد تحديات المستقبل القريب لتكوين العربية مع اللغات الكبرى بوصفها وسيلة لنقل المعلومات بالتقانات المتقدمة.

نخلص من ذلك إلى التأكيد على حتمية استعمال اللغة العربية كأداة لتبليغ التقانة لتأمين مستقبل لغتنا، ولتأهيلها لتبوء المكانة اللائقة بها بين اللغات الحية، وينبغي أن لا نغفل حقيقة أخرى ستساعد ولا شك اللغة العربية على احتلال هذه المكانة في المستقبل، وهذه الحقيقة تتجلى في كون العربية في حاجة إلى مسايرة العصر، حتى تعبر عن فكر عصري، وتساهم في خلق هذا الفكر العصري.

إن العلم يركز على اللغة كوسيلة اتصال، وإننا نوسع اللغة إذ نوسع المعرفة العلمية، ولغة العلم هي لغة تواصل، كما أنها أداة تصور العالم أيضاً وتعطي الصورة العلمية للعالم. ومن ثم

فإن اتساع اللغة رهنٌ باتساع النشاط المعرفي العلمي في المجتمع بعامه، هذا وإلا ظلت لغة العلم نوعاً من الميتافيزيقا بالنسبة للمجتمع.

ازدهار اللغة العربية في هذا العصر، وفي كل العصور، مرهون بازدهار العلوم والتقانة، حتى تصبح العربية لغة البحث العلمي في هذه الحقول جميعاً، فاللغة تنمو وتتطور وتزدهر بنمو الأمة التي تنتمي إليها والناطقة بها وبتطورها وبازدهارها.

إن دور وسائل الإعلام في الفصحى المعاصرة دور كبير يجب أن تحشد له الجهود ليكون هذا الدور إيجابياً في دعم لغة القرآن الكريم، ويجب أن يعي المسؤولون عن تلك الوسائل خطورة الانزلاق إلى العامية التي تفرق ولا تجمع... أمتنا العربية في حاجة إلى التوحد أكثر من أي وقت مضى خاصة في عصر العولمة وما تواجهه اللغات من خطر الإبادة فمن المفترض بداهة أن البشر جميعاً كانوا يتكلمون لغة واحدة في فجر التاريخ، ثم تفرقت هذه اللغة إلى لهجات وألسنة مع الوقت تبعاً لتفرق البشر شعوباً وقبائل، لكن في عصر العولمة وما ألقته من حواجز فهل من البداهة أيضاً أن يعود البشر جميعاً لاستعمال لغة واحدة فقط في زمن أصبحوا فيه أكثر من ستة مليارات نسمة؟ هذا السؤال يتم طرحه ومجابهة ما ينطوي عليه من تحديات ونحن في زمن العولمة التي تحمل من المتناقضات والمفارقات أكثر مما تحمل من الإجابات والحلول الحاسمة لمشاكل التطور الاجتماعي والثقافي.

وعلى سبيل المثال ففي حين تعمل آليات العولمة وقوانينها على إحياء الأقليات والجماعات الصغيرة التي استوعبت وهضمت حقوقها الثقافية واللغوية فإن العولمة نفسها بآلياتها وتقنياتها ونظمها الثقافية تؤدي عملياً إلى إبادة مئات اللغات الصغيرة والكبيرة على حد سواء وتدفع التطور العالمي في اتجاه اللغة الواحدة والثقافة الواحدة واللسان الواحد.

وبعبارة أخرى كانت الأقليات والفئات الصغيرة تطمح في عصر حقوق الإنسان وانهيار الدول المركبة، وانحسار مفهوم السيادة القومية المطلقة إلى تنشيط وتطوير ثقافتها وهوياتها الخاصة والمحلية، نلاحظ أن العولمة تؤدي من ناحية ثانية إلى طمس هذه الهويات والخصائص الثقافية، وعلى رأسها جميعاً اللغات التي تمثل بالطبع الوعاء الثقافي والمخزون التاريخي للتقاليد والمزاي والفنون والإبداعات والعناصر المميزة لها.

والمذهل فيما نعيش من تحد لغوي أنه لا يقتصر على لغات الأقليات كالأكراد في تركيا، أو الأمازيغ في شمال أفريقيا أو الباسك في أسبانيا أو الكورسيكيين في فرنسا أو الإيرلنديين في بريطانيا أو الشيشان في روسيا بل أن هذا المتحدى يجابه اللغات الحية والكبرى في هذا العصر، كالفرنسية والإسبانية والروسية والصينية واليابانية والعربية.

فإن العولمة وبرمجياتها تفتك بلا رحمة ولا ديمقراطية بكل هذه اللغات، ومن يتأمل قلق الفرنسيين على مستقبل لغتهم التي كانت بالأمس القريب، تعد لغة الأدب والثقافة والفنون الأولى في العالم، لنذكر ما يتهدد بقية اللغات لا الفرنسية فقط، فالفرنسيون واعون بالخطر الداهم أظهروا ردود أفعالهم، أما الأمم الأخرى التي لا تظهر ردود أفعال مماثلة فإنها سادرة في سباتها ولا تعلم ما يحدث على المستوى العالمي، ولا نبالغ إذا قلنا أن العرب هم من هذه الأمم السادرة لا يدرك معظمهم حجم التحديات التي تحيق بلغتهم التي كانت في الأصل، وقبل ثورة العولمة والمعلوماتية تتراجع وتتخلف في جميع البلدان العربية تقريباً بطريقة تهددها بالانكماش والتقلص والتفقر، ثم جاءت الثورة المذكورة لتدمر المزيد من إمكاناتها الفنية وطاقاتها الاستيعابية لمعطيات الحضارة الحديثة ومسايرة التقدم الثقافي والعلمي.

وحسب الأرقام الدولية الرسمية فإن 90 % من العناصر التي تتحرك في شبكة المعلومات هي بالانجليزية وحدها و85 % من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالانجليزية أيضاً، وأكثر من 70 % من الأفلام السينمائية والتلفزيونية بالانجليزية و65 % من برامج الإذاعات في كل العالم بالانجليزية.

وأمام هذا الهجوم اللغوي الإنجليزي وما يتبعه من عناصر ثقافية وفكرية، فإن دولاً عملاقة كاليابان والصين وفرنسا تتوقف عن استخدام لغاتها في صناعة البرمجيات لأنها لا تستطيع المنافسة وتحولت إلى الإنجليزية.

إن الهجوم اللغوي قد لا يختلف في نتائجه الثقافية عن هجوم نووي لأنه سيبيد آلاف اللغات المحلية التي ازدهرت، ونمت عبر آلاف السنين لتخلق حديقة عالمية متنوعة وغنية بالثقافات واللغات المتعددة ويحول العالم المتزايد حجماً واتساعاً إلى صحراء ثقافية قاحلة وطابور واحد.

هل يؤدي التقدم الفني والعملي إلى تخلف ثقافي؟ وهل تؤدي ثورات الديمقراطية والعولمة والتجارة الحرة والانفتاح إلى ديكتاتورية ثقافية أشد ضرراً وخطراً من عصر العصف الثقافي أبان التوسع الاستعماري؟

المواجهة بدأت لا محالة فأين عتادنا نحن العرب في المواجهة غير المتكافئة؟ التراث العربي كان له شأنه في تاريخ الثقافة الإنسانية - فهو ثمرة حضارات وثقافات سادت العالم على مدى عدة قرون - كانت العربية فيها لغة العلم والعلماء لا تنازعها تلك المكانة أي لغة أخرى، وقتذاك استطاعت العربية استيعاب جميع العلوم التي سبقتها وأضافت إليها علومًا ومعارف جديدة بمفاهيم ومصطلحات جديدة. وفيها كانت تؤلف الكتب، وبها يتحدث العلماء في ما بينهم مهما اختلفت أصولهم، وعنهما أخذت شتى اللغات مئات المصطلحات في الفلك والكيمياء والطب والجغرافيا والرياضيات، وترجمت مؤلفاتها في هذه العلوم إلى اللغة اللاتينية وظلت

تدرس في جامعات أوروبا العريقة مونبيلييه وتوينجن طوال عدة قرون. فقد كانت مؤلفات الرازي وابن سينا وجابر وابن الهيثم المترجمة مراجع أساسية حتى عصر النهضة الأوروبية. ونذكر أن هارون الرشيد، بعد احتلاله عُمُورِيَّةً وأنقَرَةَ طلب من الحكام فيهما تسليمه المخطوطات العلمية والمعرفية من مكتباتهم. ومثله فعل المأمون - بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطية - فقد طلب منه تسليم أعمال القدماء التي لم تكن قد ترجمت إلى العربية، واعتبار ذلك بديلاً عن تعويضات الحرب؛ فالثقافة الحقة أقوى من القوة العسكرية - وهي، بخلاف مقولة العلامة ابن خلدون - قد تكون في المغلوب أقوى منها في الغالب، فلما احتلت جيوش الرومان أثينا، صمدت الثقافة اليونانية أمام ثقافة الغزاة فاحتلت بتفوقها وزهائها المتميز عقول الرومان حتى قيل في ذلك تاريخياً: المغلوب غلب الغالب.

The conquered conquered the conquerer

فالغزو الثقافي الغربي الاستعماري الذي داهم مجتمعاتنا انعكس بأشكالٍ شَتَّى من التقليد والتبعية والانقياد والافتداء، معزراً بالنموذج الأمريكي مؤخراً، فأدى إلى أن أصبح مجتمعات مسخرة في خدمة الأجنبي مبهورين بما يلبس وَيَسْلُكُ ويستخدم، غافلين عن أساليبه ورسائله ومناهجه في سلب ثرواتنا وتسخير طاقاتها لصالحه، وتحويلنا إلى أفواه وسواعد مُسْتَبَاحَةِ الإرادة مُهيأة لتكون في خدمة مشاريعه الاستعمارية الاستثمارية، في جَوٍّ من الوهم - وهم الحرية المزيفة والقناعات المُشوَّهة - قبائلياً وطائفيّاً وإقليمياً وقطريّاً - سياساتٍ أنويه تفرديّة غدا وطننا العربي على بركتها اثنتين وعشرين دولة.

ولو كنا أفراداً ومجتمعات، مسلحين بثقافتنا وتراثنا وقيمنا وقوانا وأصالتنا الحَقَّة، لما كانت حال التواكل والتآكل هذه حالنا.

لعل جذور العولمة تعود بنا إلى فترة الغزو الغربي الاستعماري منذ القرن التاسع عشر ولا يزال مستمراً، طوعاً أو كَرْهًا، وبأساليب مختلفة تطوَّرت حسب الأوضاع والظروف وعلى شتى المجالات - عسكرياً وسياسياً واستغلالياً واستعبادياً وحضارياً واقتصادياً - ظاهراً وباطناً، بحجة نشر مفاهيم ووسائل تؤدي زعمًا إلى التقدم والازدهار والتحرر.

وفي الواقع، لم تكن تلك النزعة من القوى العظمى الأوروبية - بخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وانفراط الإمبراطورية العثمانية - إلا وسيلة للسيطرة الاستعمارية الاستلابية على العالم العربي - أقساماً بريطانياً فرنسيّاً شرقاً - وفرنسياً إيطالياً إسبانياً غرباً.

فاللافت للنظر أن مختلف القوى الاستعمارية، التي هبت إلى لَفْنَا في عوالمها، واحتواء هويتنا، ابتدأت بالحرب على اللغة العربية - إن كان بتشجيع العامية وإحلال الإنجليزية مكان

العربية في مختلف معاهد التعليم الثانوي والعالى في مصر، أو بمحاولة طمس اللغة العربية ومحو معالمها وفرض البدائل بدءاً باللغة الفرنسية وانتهاءً بإحلال اللهجات المحلية؛ كالأمازيغية البربرية محلّ العربية الفصحى، في الجزائر - في حين يقاومون هم بضراوة تعليم لغات الأقليات في مقاطعاتهم، كلغة كورسيكا ولغات ألباسك وكاتلان في إسبانيا وغيرها. ولقد سمعنا أخيراً بإنجازات الديمقراطية الأمريكية الزائفة تعليم اللغتين الكردية والسريانية في مدارس العراق الرسمية منذ 2002م.

التحدي اللغوي الثقافي الحضاري الذي يجب أن يضطلع به أهل الفصحى، حتى لا تبقى العربية عُرْضةً للتهميش والإقصاء عن المجالات الثقافية والاجتماعية والتقنية في قرية العولمة التي أضحاها عالمنا اليوم، هو مجابهة جيوش العولمة والأمركة، كما فعلت قديماً به الحضارة العباسية ثقافة وحضارات الأمم الأخرى وقتذاك وصهرته في كيانها، فالتحدي هو إعادة مسرحة تلك التجربة العربية الحضارية الرائدة.

التطور المذهل الذي نشهده في البلدان المتقدمة مرده إلى الارتقاء المذهل في العلوم والثقافة العلمية، وتطبيقات في الصناعة والزراعة والصحة والتواصل والبحوث المعمقة في تطويرها. العلم هو الحل، إن أجيال العلماء المعاصرين يدركون أنه لا يمكن للشعوب العربية العيش الكريم وتحقيق الذات الحضارية إلا بالعلم، وبالثقافة العلمية وبسلوك طريق العلم ومزج العلم بالحياة.

تجاوز مستويات الجهل والفقر والمرض والخوف من المستقبل بالعلم - وبأساليب العلم، وتطبيقاته وبثقافة العلم، وبعولمة أجيال العرب الجديدة بالعلم - تقنياً وصناعياً وزراعياً وطبياً وفيزيائياً وكيميائياً وإلكترونياً وأبحاثياً واجتماعياً وسلوكياً، وأخيراً وليس آخراً لغوياً، وذلك بعضوية العلم والثقافة العلمية باللغة العربية.

إنّ مستقبلنا العلمي والحضاري والثقافي مرهون بأن تصبح اللغة العربية جزءاً من الحياة اليومية في المدرسة والبيت كما في المصنع والجامعة ومراكز البحوث، وأن تغدو الثقافة العلمية جزءاً من ثقافة الصانع والزارع والبناء والحداد والنجار والعامل، كلّ في مجال عمله؛ مقولتنا بالعولمة العلمية باللغة القومية ليست بأي حال ضد تعزيز تعليم اللغة أو اللغات الأجنبية، فالحاجة إلى إتقان لغة أجنبية عالمية معاصرة هي اليوم مطلب تربوي عولميّ أساسي لكل مثقف - عربي أو غير عربي.

اللغة الإنجليزية - لغة العولمة اليوم - حاجة ضرورية للعالم الفنلندي والياباني والكوري والفرنسي والفيتنامي وغيرهم، ولكن - لا الكوريون ولا اليابانيون ولا حتى الفيتناميون طرحوا مسألة اعتماد اللغة الإنجليزية لغة تدريس مواد العلوم ونشر الثقافة العلمية في بلادهم.

لدينا أجيالٌ كاملة من الصناع والزُّراع وعامة الناس - نجارين وحدّادين وبنائين وعمالٍ في شتى مجالات أعمالهم الحياتية، وهؤلاء عاجزون حاليًا ومُستقبليًا عن التفاعل مع لغة أجنبية - وبالتالي سيبقون بعيدين عن الانفتاح على الثقافة العالمية، علمية وغير علمية، وعن الإنجازات الحضارية التقنية والزراعية والصناعية والصحية والتواصلية العولمية ما لم تتح لهم هذه الثقافة باللغة القومية.

وتحضرني هنا مقولة الأديب الكبير المغفور له أحمد حسن الزيات « من المحال أن تنقل الأمة كلها إلى العلم بلغة أجنبية، لكن من الممكن أن تنقل العلم كله إلى الأمة باللغة القومية ». مستورداتنا من منجزات العولمة العلمية ومبتكراتها التقنية الحديثة وفيرة، حتى لتكاد بعض المنجزات في مجتمعاتنا المليئة اقتصاديًا تفوق ما يتواجد منها في بلد المنشأ.

لكن هذه المنجزات على وفرتها، لم تنقل لنا المعرفة المجسدة فيها، ولا أنماط البحوث التطبيقية والمختبرية التي خلقتها، ولا حتى مجتمعات المعرفة التي توظف هذه المبتكرات والإنجازات إيجابيًا وبفعالية مجدية في مختلف القطاعات الصناعية والزراعية والإعمارية والاجتماعية التنموية بحيث لا تبقى أرض عربية غير مزروعة، ولا مياهٌ عربية مهدورة، ولا يد عاطلة عن العمل ولا مصنع يفنينا عن الاستيراد غير مبنى، ولا معاهد وجامعات بالجملة خاوية من المختبرات ولا مراكز بحوث خالية من البحوث والباحثين.

أمثال هذه العولمات الإيجابية القومية مازلنا نفتقدها أو نفتقد معظمها. بالمقابل غزتنا العولمة بروافد سلبية انعكست عولمة تحلل من الأخلاقيات التراثية.

عولمة صراعات سلوكية تبعد كثيرًا أو قليلًا عن أنماط السلوك المرضية، عولمة زلزلت الكثير من قيمنا ومفاهيمنا عبر ما تعرضه القنوات التلفزيونية، الفضائية بخاصة من برامج على مدار الساعة تتنافى مع قيمنا وتراثنا ومعتقداتنا وتقاليدينا الأصيلة.

عولمة تستبقى أولادنا، صغارًا ومراهقين وبعض الكبار، مُسمَّرين ساعات طوالاً يوميًا أمام الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) - ليس شغفا بالمعلومات ولا شوقًا للمشاهدة الثقيفية الجدِّية والتمثيلية الروائية الخالدة - بل لاستشفاف المناظر المؤذية والمواد الإباحية والثقافات الخليعة - إضافة إلى تبادل المكالمات والرسائل المشبوهة وترتيب اللقاءات التي لا يدري أحدٌ كيف تنتهي! عولمة تنتحي إلى ثقافة الأجنبي وترسيخ مركب النقص تجاه كل ما هو عربي - حتى إن بعض مصانعنا تستنكف من كتابة العربية على منتجها الذي تصدره إلى الأسواق العربية - فستبدل بها لغة أجنبية أخرى. عولمة سلبية عرجاء يجب ألا تسمح الشعوب العربية إن تتخذ احتياطاتها الضرورية للحفاظ على مقومات هويتها، فإن كثيرًا من الشعوب قد تدبرت أمورًا واستطاعت أن تتخذ مثل هذه الحصانة مثال ذلك دول الاتحاد الأوروبي فكل دولة تتمسك

بلغتها فلا تدرس ولا تعلم ولا تذيع في أجهزة الإعلام إلا بها، وفي ألمانيا لا يمكن أن يعرض أي فيلم أمريكي على التلفاز إلا إذا كان مدبلجا بالألمانية وحتى كوريا تفعل الشيء نفسه، فلا بد من وضع سياسة لغوية وتشريعات تمنح هذه اللغة قوة تستطيع بها أن تصد هذه الأخطار الآتية من قِبَل العولمة.

لذلك أدعو إلى منهج يجب اعتماده لتجديد اللغة العربية والنهوض بها، وتأهيلها لمواكبة تحديات العولمة، أربع قواعد أوجزها فيما يلي :

1- التعامل مع اللغة على أساس أنها كائن حي قابل للتطور وفق ما يقرره أبناء اللغة، أي أن تطور اللغة يأتي من إرادة الناطقين بها، ويصدر عنهم فهم أصحاب المصلحة في هذا التطوير.

2- إحكام العلاقة بين عملية تطوير اللغة وإصلاحها وتحسينها وتجديدها وبين المتغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية، بحيث تكون عملية التطوير استجابةً لتطور المجتمع، ونابعة من واقعه الحياتي.

3- الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفرعاته، والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعاً في إغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني.

4- الاهتمام بالجانب القانوني والتشريعي في عملية التطوير، حرصاً على ضبط مساره والتحكم في نتائجه، من خلال وضع قوانين تصادق عليها الجهات الرسمية المختصة، لفرض هبة اللغة وإلزام أفراد المجتمع والهيئات والجماعات ووسائل الإعلام باحترامها طبقاً للقانون. أسوة بما هو عليه الأمر في بعض الدول الغربية، ومنها فرنسا على سبيل المثال.

إن الطريق نحو تقوية اللغة العربية وتحسينها، يمرُّ عبر تنفيذ مثل هذه التوصيات التي تعبر عن الإرادة الجماعية للنخب الفكرية والعلمية والثقافية التي تمتلك إلى العلم والمعرفة، الغيرة والحماسة وإرادة العمل.

ذلك أن مواجهة الأخطار الناتجة عن تحديات العولمة والمهددة للهوية الثقافية والحضارية لا تتم لا بالعمل الملموس انطلاقاً من الواقع، وبأدوات العصر، وبالوسائل التي تتيح للغيورين على اللغة والقائمين على تطويرها والمهتمين المسؤولين عن حمايتها والحفاظ على خصوصياتها، أن يستوعب المتغيرات في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وشتى حقول المعرفة، ليواصلوا تطوير اللغة وتحديثها لمسايرة العصر ومواجهة العولمة.

فاللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد بغيره، لأنها واسطة التفاهم بين الناس، وآلة التفكير عند الفرد، وواسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأُخلاف؛ فإن الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وأصبحت في سبات، تستطيع أن تستعيد وعيها بالعودة إلى تاريخها، فإن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة، ولا مستقبل لأمة فرطت في لغتها، وليس في المستطاع مواجهة تحديات العولمة بلغة لا تتوافر لها شروط المواجهة.